

نظرية شبكة الفاعلين، والشبكات، والمناهج العلائقية في الجغرافيا البشرية فرناندو ج. بوسكو

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

ما هي نظرية شبكة الفاعلين؟

هناك طرق عديدة لوصف نظرية شبكة الفاعلين (ANT)، وقد كُتب الكثير عن هذا المنظور في السنوات الأخيرة. ANT هو نهج في علم الاجتماع يعود أصله إلى دراسات علم اجتماع العلوم والتكنولوجيا، ويرتبط في الغالب بأعمال برونو لاتور، وجون لو، وميشيل كالون، من بين آخرين كثر، بدءًا من ثمانينيات القرن العشرين. تدور **نظرية شبكة الفاعلين** حول كشف وتتبع الروابط والعلاقات العديدة بين مجموعة متنوعة من الجهات الفاعلة (البشرية، وغير البشرية، والمادية، والخطابية) التي تسمح لجهات فاعلة معينة، وأحداث، وعمليات معينة بأن تصبح على ما هي عليه. كان الاهتمام الأصلي لنظرية ANT هو فهم بناء المعرفة العلمية كنتاج لأشياء متنوعة (مثل المجالات الأكاديمية، وأنبوب اختبار في مختبر، والعروض الأكاديمية، والمهارات المتجسدة في العالم) تتجمع بطرق مختلفة من خلال عملية "هندسة غير متجانسة" (لو، 1992). منذ تركيزها الأصلي على بناء المعرفة العلمية، ذهبت نظرية ANT إلى أبعد من ذلك بكثير وتجاوزت المجالات التخصصية (لو، 1991؛ لو وهاسارد، 1999). واليوم، يتبع الباحثون، بمن فيهم الجغرافيون بالطبع، مسارًا مشابهًا - وهو تتبع الارتباطات غير المتجانسة بين الأشياء - لفهم بناء المجتمع بشكل عام.

يتطلب أي نقاش حول نظرية ANT فهمًا أساسيًا للتفكير ما بعد البنيوي، ولكنها لا تُعادل ما بعد البنيوية. بل إن نظرية ANT هي واحدة من عدة وجهات نظر تشترك في بعض المشاعر المناهضة للجوهر في التفكير ما بعد البنيوي. في الواقع، يمكن وضع نظرية ANT جنبًا إلى جنب مع الجهود النظرية والمنهجية الأخرى في العلوم الاجتماعية التي تحاول استيعاب تعقيد عالمنا اليوم بشكل أفضل. وكما جادل لو وأوري (2002) مؤخرًا، فإن مناهج العلوم الاجتماعية الحالية ليست مجهزة جيدًا لفهم حقائق القرن الحادي والعشرين. ووفقًا لهما، فقد تعاملت العلوم الاجتماعية حتى الآن بشكل سيئ مع "الزائل - ما هو موجود اليوم ويختفي غدًا"، كما تعاملت بشكل سيئ مع "الموزع - أي ما يمكن العثور عليه هنا وهناك ولكن ليس بينهما - ما ينزلق وينزلق بين مكان وآخر" (2002: 9). وبالتالي، فإن نظرية ANT هي محاولة للتعامل مع التعقيد والمراوغ.

كيف يمكن لنظرية ANT معالجة تحليل العديد من المخاوف البحثية المتباينة؟ كيف يمكن لنظرية ANT أن تزعم كشف العلاقات التي تؤدي إلى ترتيبات مختلفة للأشياء مثل مطاعم الـ"يوبي" في نيوزيلندا (لاثام، 2002) وشبكات الإرهاب العالمية؟ تُمثل نظرية ANT (إيتزينجر وبوسكو، 2004) إطارًا يُشير إلى أن المعرفة والفاعلين والمؤسسات والمنظمات والمجتمع ككل هي آثار، وأن هذه الآثار هي نتاج علاقات تُنشأ من خلال شبكات غير متجانسة من البشر وغير البشر. تُخبرنا نظرية ANT أن هذه الآثار جزء من الشبكة تمامًا مثل الجهات الفاعلة التي نهتم بدراستها. وكما يوضح لو (1999: 4)، فإن الجهات الفاعلة هي آثار شبكية تأخذ سمات الكيانات التي تشملها؛ حيث تُنتج الكيانات والأشياء أو "تؤدي" من خلال العلاقات.

وهكذا ، عندما نقرأ عن "الأداء" في نظرية ANT، ما يعنيه الباحثون هو أن الأشياء تُنتج من خلال تأثيرات علانية ، وتُسهل وتُفعل من خلال الشبكات . ويوضح لنا نهج الفاعل-الشبكة أنه يمكن تحليل هذه التأثيرات وفهمها من خلال تتبع الشبكات التي تُشكّلها والعلاقات المتغيرة التي تنشأ وتتطور بمجرد ارتباط الأشياء غير المتجانسة (البشرية وغير البشرية) ببعضها البعض . ومن أكثر النقاط المثيرة للجدل التي طرحتها نظرية ANT أن "الفاعلين" في شبكات العلاقات غير المتجانسة هذه (البشر وغير البشر) لديهم القدرة على الفعل . وهذا يتطلب بعض التوضيح ، لأنه إذا حاول المرء تفسير هذه العبارة بلغة النظرية الاجتماعية التقليدية ، فقد يُدفع إلى الاعتقاد بأن كل شيء في العالم (مسؤول حكومي ، مبنى فارغ ، قانون ، شجرة) لديه "فاعلية" . بمعنى آخر، قد يُدفع إلى افتراض أن كل شيء في العالم يُعادل فاعلاً فردياً مقصوداً . من منظور النظرية الاجتماعية ، لن يكون لهذا الأمر معنى كبير.

ومع ذلك ، تدعونا نظرية الفاعلية إلى التفكير في الفاعلين والفاعلية بشكل مختلف . تحديداً ، ووفقاً لاتور، من منظور نظرية الفاعلية ، يُوصف الفاعل بأنه شيء أفضل وصفاً له بأنه فاعل ، "شيء يفعل أو يُمنح له النشاط من قبل الآخرين... [الفاعل] لا يعني أي دافع خاص للفاعلين الأفراد من البشر، أو للبشر بشكل عام . يمكن أن يكون الفاعل حرفياً أي شيء شريطة أن يكون مصدرًا للفعل" (1996: 373 ، التشديد الأصلي). ليس الأمر كما لو أن نظرية الفاعلية لا ترى فرقاً بين البشر وغير البشر. بل ، كما يوضح آدم ، عندما نعمل مع نظرية الفاعلية ، "يُعامل البشر وغير البشر بشكل متناظر في أوصافنا للعالم ، وخاصة فيما يتعلق بفاعلية غير البشر، وهي فاعلية قد تكون أو لا تكون قد صممتها أو رسمتها فاعلات بشرية" (2002: 332) .

تُعيدنا مناقشة لاتور وتعريفه للفاعلين إلى مناقشة تأثيرات الشبكة ، وهي مفهوم رئيسي في نظرية التأثير . من منظور نظرية التأثير، تُعدّ الفاعلية تأثيراً موزعاً ونتيجة للعلاقات التي تُنفذ من خلال شبكات من الأشياء والمواد غير المتجانسة . في الواقع، الفاعلية لا مركزية ، أي أنها لا تتمركز أو تقع تحديداً في البشر أو في أي شيء آخر (ينظر واتمور، 1999). على سبيل المثال ، من منظور نظرية التأثير، لن أكون جغرافياً قادراً على كتابة الأبحاث وإنتاج المعرفة إذا سُلِب مني جهاز الكمبيوتر الخاص بي ، وزملائي ، وكتبي ، ووظيفتي ، وشبكتي المهنية ، وكل شيء آخر في حياتي يسمح لي بالتصرف كما أنا .

تخبرني نظرية التأثير أنه إذا حدث هذا لي ، فسأصبح شيئاً مختلفاً عما أنا عليه الآن . يطرح لو (1992) هذه القضية نفسها (حول اعتماد هويته كعالم اجتماع على شبكة فاعلة معينة) ويلخص هذا المفهوم اللامركزي للفاعلية بتعريفها على أنها شبكة . وبالتالي ، من وجهة النظر هذه ، فإن أشياء مثل المعرفة العلمية ، وحكومة أمة ، وحتى ما يُعد شخصاً ، ليست سوى تأثيرات شبكية . ووفقاً لذلك ، فإن هذا يعني أن المرء في النهاية فاعل لأنه "يسكن مجموعة من العناصر (بما في ذلك ، بالطبع ، جسد) تمتد إلى شبكة المواد ، الجسدية وغيرها ، التي تحيط بكل جسد" (1992: 3). في نهاية المطاف، بمجرد أن نُدرك مفهوم الفاعلية كشبكة ، فإن كشف "شبكات الفاعلين" غير المتجانسة للارتباطات يُتيح لنا شرح الآليات السلطة والتنظيم في المجتمع ، وفهم كيفية نشوء الأشياء المختلفة (من المعرفة إلى المؤسسات إلى المصنوعات المادية والتقنيات) ، وكيف تدوم مع مرور الوقت ، أو كيف تفشل وتختفي من حياتنا وعالمنا (لو، 1992).

ومثل غيرها من المناهج العلانية في النظرية الاجتماعية (مثل تحليل الشبكات الاجتماعية ، الذي سيُنقاش فيما يتعلق بنظرية الفاعلية في القسم الاتي) ، تُمثل نظرية الفاعلية في محاولة للتغلب على بعض الثنائيات الأكثر ديمومة في النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مثل الجدل حول بنية الفاعلية أو التمييزات التي تُميزها عادةً يُعقد بين تحليل الظواهر الاجتماعية على المستويين الكلي والجزئي . لكن المؤيدين الرئيسيين

لنظرية ANT يطالبون العاملين بها بعدم محاولة تأطير ANT ضمن الفئات النموذجية للنظرية الاجتماعية . على سبيل المثال ، في معرض تفكيره (وربما رثائه) للطريقة التي حشد بها بعض الباحثين أفكار ANT في أبحاثهم ، أوضح لاتور (1999) أن "الفاعل" (في شبكة الفاعلين) لا يُفترض أن يلعب دور "الفاعلية" ، وأن "الشبكة" (في شبكة الفاعلين) لا يُفترض أن تلعب دور البنية أو المجتمع . بدلاً من ذلك ، و وفقاً لاتور، فإن "الاجتماعي هو نوع معين من الدورة يمكن أن يسافر بلا نهاية دون أن يصادف أيًا من المستويين الجزئي أو الكلي" (1999: 19).

تطلب منا نظرية ANT ألا نفكر في التسلسلات الهرمية أو الفئات ، بل نفكر في الدورات والتدفقات المستمرة . باختصار ، **يحاول ANT شرح ما يحدث في العالم من خلال استكشاف الروابط العديدة بين الفاعلين في شبكات الارتباطات** . ولا يُفرّق بين البشر وغير البشر تمييزاً مُميزاً . بل يطلب منا أن نتأمل ما نراه ، أي الظواهر الموجودة في العالم التي تنير اهتمامنا ، والتي نرغب في دراستها ، كأداءات ، وكآثار العلاقات التي تنشأ من خلال الروابط والشبكات . ويخبرنا **أنه لفهم الأشياء ، يجب علينا كشف شبكات الفاعلين**.

الشبكات في الجغرافيا ومكانة ANT

لا تُعدّ ANT مجرد نظرية جغرافية ، أو فلسفة ، أو منظور ، لأن أصولها تقع خارج حدود الجغرافيا البشرية المعاصرة . قد يقول البعض أيضاً إنه لا يوجد شيء جغرافي بالضرورة في ANT - إلا إذا كان المرء جغرافياً ، وبالتالي يفكر جغرافياً في العالم بشكل عام . وهكذا ، عند التفكير في ANT ، **سيضيف الجغرافيون أيضاً أن كيفية نشوء شبكات الجهات الفاعلة التي تُنتج المعرفة والمؤسسات والمنظمات (وسبب نجاحها أو فشلها) مرتبطة أيضاً بمكانية مُضمنة في شبكات الجهات الفاعلة** . على سبيل المثال ، في طوبولوجيات الحياة البرية التي تتبعها واثمور (2002) ، اعتمدت شبكات الجهات الفاعلة (وُبنيت على) البيئات الجغرافية المحددة التي يُمكن فيها تمثيل الحياة البرية ، مثل الساحة الرومانية والمحمية الطبيعية . بعبارة أخرى ، **تُعد مكانية شبكات الجهات الفاعلة جزءاً من لا يمكن فصل الشبكات الفاعلة عن الشبكات الفاعلة أو تصورها خارجها** (موردوك، ١٩٩٧) .

في السنوات الأخيرة ، بدأ العديد من الباحثين يفكرون جغرافياً في الشبكات الفاعلة . في الواقع ، قدّمت نظرية الشبكات الفاعلة معلوماتٍ لمشاريع بحثية للعديد من الجغرافيين البشريين ، وسرعان ما أثبت هذا المنظور وجوده بين الأطر النظرية الأخرى في هذا التخصص ، حتى أنه حل محل بعض الأطر القديمة الراسخة . وقد لاحظ بعض المؤيدين الرئيسيين لـ ANT عمل الجغرافيين ، الذين يُنسبون إليهم الفضل في تحدي مفاهيم العالم التي تعتمد بشكل مفرط على الإقليدية (Law، 1999). ومن الأدلة على الأهمية المتزايدة لـ ANT العدد المتزايد من المقالات البحثية (مثل Murdoch and Marsden، 1995؛ Murdoch، 1997؛ Woods، 1998؛ Olds and Yeung، 1999؛ Dicken et al.، 2001)، والأعداد الخاصة في المجلات العريقة (مثل Hetherington and Law، 2000، وعدددهم الخاص المحرر في Environment and Planning D: Society and Space، 2000، بعنوان "After Networks")، والكتب وفصول الكتب في المجموعات المحررة (مثل Thrift، 1996؛ Whatmore، 1999؛ لاثام، 2002؛ واثمور، 2002)، على سبيل المثال لا الحصر.

وبالمثل ، يتضح دخول ANT في المشهد النظري للجغرافيا البشرية من خلال عدد العروض التقديمية في المؤتمرات الأكاديمية الجغرافية في أوروبا وأمريكا الشمالية التي تستشهد بـ ANT أو تعترف بها كجزء

من الإطار الذي يوجه مشاريع البحث المختلفة . وهذا دليل على الأهمية المتزايدة لـ ANT كنهج مقبول وقيم في الجغرافيا البشرية . النقطة الرئيسية هي أنه ، كما يتضح من عدد الكتب والمقالات والعروض التقديمية في المؤتمرات ، فإن مفهوم الشبكات الذي تقدمه ANT قد تجاوز الأفكار والنظريات التقليدية الأخرى حول الشبكات التي كانت موجودة في الجغرافيا لأكثر من أربعة عقود ، وخاصة في الجغرافيا البشرية . طوال القرن العشرين ، اهتم الجغرافيون بالشبكات وجغرافياتها . تتغلغل الشبكات في التفكير الجغرافي ، على الرغم من اختلاف اهتمامات الجغرافيين التجريبية ، واختلاف تفكيرهم بشأن الشبكات نظرًا لاختلاف وجهات النظر النظرية ، بل وتضاربها في كثير من الأحيان ، واتباعهم مناهج تحليلية مختلفة لتحليل الشبكات التي تهمهم . وتُعدّ الشبكات كظواهر تجريبية ، والشبكات كمصطلح ، مفهومين قويين شكلاً ركيزة أساسية في أجنات بحث الجغرافيين عبر التخصصات الجغرافية الفرعية . على سبيل المثال ، يدرس جغرافيو النقل والمحللون المكانيون شبكات السكك الحديدية والطرق السريعة ، و شبكات المحاور والأفرع في حركة الطيران ، واتصال الإنترنت وتدفقاته ، ويحاولون نمذجتها رياضياً . أما الجغرافيون الاقتصاديون ، فيعملون على شبكات الإنتاج من خلال دراسات تجمع الشركات وغيرها من المفاهيم المستوحاة من الشبكات ، مثل مناطق التعلم ، والترابطات غير التجارية ، وسلاسل السلع العالمية .

يهتم الجغرافيون الاجتماعيون والسياسيون والثقافيون بالتدفقات العالمية والصلات بين البشر البعيدين ، ويتناولون هذه القضايا من خلال دراسات شبكات الأعراق ، وتدفقات المهاجرين ، وتكوين الهويات العابرة للحدود الوطنية ، وظهور الحركات الاجتماعية العالمية و شبكات المقاومة . كما استلهمت مجموعة كبيرة من الأبحاث الحديثة حول شبكة الويب العالمية ، والعدد الهائل من الاتصالات والتدفقات والفضاءات السيبرانية وغيرها من الفضاءات البديلة التي تنتجها تقاطعات التكنولوجيا والمجتمع ، من أفكار حول الشبكات (ربما يكون أشهرها هنا مفهوم كاستيلز لعام ١٩٩٦ عن "مجتمع الشبكات" و"فضاء التدفقات"، والذي أثار جدلاً واسعاً). بطريقة ما، ينبغي أن ننظر إلى دمج ANT في الجغرافيا كنهج آخر ضمن سلسلة من مناهج تحليل ودراسة الشبكات من قبل الجغرافيين .

ربما يكون ANT هو النهج الأول منذ تحليل الشبكات المكانية في الجغرافيا في أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي الذي يجعل الشبكات محور الاهتمام الصريح لدراسة جميع الظواهر . دعوني أوضح هذا . التحليل المكاني للشبكات في تطور الجغرافيا بالتزامن مع الثورة الكمية ، وسعت إلى تحليل الشبكات ونمذجتها رياضياً من خلال أساليب مثل نظرية الرسم البياني . في منظور التحليل الكمي والمكاني للشبكات ، كان الجغرافيون يحاولون التغلب على التناقض بين الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية ، وبالتالي جادلوا بأنه ، على سبيل المثال ، يمكن تفسير تيارات الهجرة وتيارات المياه داخل حوض تصريف على أنها شبكات وتحليلها باستخدام نماذج رياضية شائعة (هاجيت وتشورلي، 1969).

بهذا المعنى ، كان لمشروع الشبكات في الثورة الكمية تشابه مع ANT . كانت هناك محاولة لتحليل جميع الظواهر الجغرافية من حيث الشبكات ، وجهد لعدم التمييز بين الشبكات في الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية . لكن أوجه التشابه انتهت عند هذا الحد . في الواقع ، يختلف ANT اختلافاً كبيراً عن التحليل المكاني للشبكات الذي كان شائعاً في ستينيات القرن الماضي ، فهو أكثر اهتماماً بالسلطة وكيفية نشوء الأشياء - بدلاً من وضع مقاييس دقيقة للاتصال وما شابه . بالإضافة إلى ذلك ، يتجاوز ANT التحليل المكاني التقليدي للشبكات ومناهج الشبكات الأخرى في الجغرافيا بكثير، إذ يدعو إلى **تنظير المجتمع والطبيعة والفضاء وكل شيء آخر من منظور علائقي** . كما جاء دخول ANT إلى الجغرافيا في وقت بدأ فيه تحليل الشبكات الاجتماعية

، وهو منهج شبكي مؤثر آخر في الجغرافيا ، يخضع لتدقيق أكبر نتيجة للتحويل الثقافي في الجغرافيا والعلوم الاجتماعية .

كانت العديد من مفاهيم الشبكات من منظور الشبكات الاجتماعية (وما تزال) شائعة جدًا بين الجغرافيين . ومن الأمثلة الجيدة على ذلك مفهوم الاندماج ، الذي لطالما عد في الجغرافيا من حيث التكامل أو المشاركة في الشبكات المحلية والإقليمية . ومثل تحليل الشبكات الاجتماعية ، لم يقتصر الاهتمام بعمليات مثل الاندماج على مناهج جغرافية . بل إن الأدبيات المتعلقة بالشبكات الاجتماعية تنبع من اتحاد وجهات نظر معنية بفهم المجتمع من حيث نظام أنماط التفاعل المتغيرة التي تحدث بين الجهات الفاعلة التي غالبًا ما تشارك في شبكة اجتماعية واحدة أو أكثر (نوهريا وإيكلس، 1992؛ بوسكو، 2001) . على هذا المستوى ، يشترك تحليل الشبكات الاجتماعية مع تحليل الشبكات الاجتماعية في اهتمامات مماثلة بالشبكات والعلاقات ، وفي التغلب على الفجوة بين التحليل على المستويين الجزئي والكلّي .

ولكن ، كما كان الحال في الجولة الأولى من تحليل الشبكات في الجغرافيا ، فإن تحليل الشبكات الاجتماعية لا يصل إلى مستوى ANT ، لأن ANT نهجٌ أكثر شمولاً . وتحديداً ، وكما يوحي اسم النهج ، ينصب التركيز في تحليل الشبكات الاجتماعية على الشبكات الاجتماعية . يتعارض هذا التركيز مع أحد أهم الدروس المستفادة من نظرية الشبكات الاجتماعية ، وهو أن ما نراه عادةً "اجتماعيًا" يتكون من العلاقات بين البشر وغير البشر، وأنه يجب إزالة الفجوة بين العلوم الطبيعية والاجتماعية . ثانيًا ، نظرًا للتركيز على الجانب الاجتماعي ، ما تزال الفاعلية في تحليل الشبكات الاجتماعية تُركز على الشخص والجسم البشري ، على عكس رواية الفاعلية التي قدمتها نظرية الشبكات الاجتماعية والتي نوقشت في القسم السابق ، والتي وضحتها روايات واتمور (2002) حول كيفية كون الكيمان اللاتيروستريس من أمريكا الجنوبية أو النمر الأفريقي فاعلين ومفعولين في الشبكات التي يُساهمان في تشكيلها.

ثالثًا، تقتصر معظم الدراسات في منظور الشبكات الاجتماعية على تحليل الأشكال الهيكلية ، أي أشكال الشبكات بناءً على عدد وأنواع الروابط التي تُعطي الشبكة درجات مختلفة من الاتصال والمركزية وما إلى ذلك . وهذا يُشير إلى ما يأتي : أطلق إميرباير وجودوين (1994) على تحليل الشبكات الاجتماعية اسم "**الحتمية البنوية**" ، وكذلك على ما أطلق عليه لو وأوري (2002) اسم "**الإقليدية**" في العلوم الاجتماعية التقليدية ، والتي تتميز بوجود ترتيبات هرمية ، وتقسيمات إلى مستويات تحليل ، واستخدام استعارات الحجم ، الترتيب والقرب . وهذا، مرة أخرى ، يتعارض مع ANT ، لأنه لا يهتم بالبنية الفعلية للشبكة كما تُحددها أنواع مختلفة من الروابط . بل يهتم أكثر بتفسير كيفية ظهور أنواع مختلفة من الفاعلين (بشرية وغير بشرية) من علاقات مختلفة ، وكيف تؤدي إلى شبكات فاعلة متغيرة باستمرار وعلاقات قوة مختلفة .

لذلك ، فإن ANT أكثر قدرة على تفسير السيولة والحركة بين المستويين الجزئي والكلّي للتحليل Law and Urry، 2002 وبكونه نهجًا غير خطي وغير تمثيلي Thrift، 2000، فإن ANT يتفوق على تحليل الشبكات الاجتماعية وغيره من المناهج العلائقية الحالية في قدرته على كشف العلاقات المعقدة التي تُشكل عالمنا . باختصار، لا يشترك ANT إلا في بعض أوجه التشابه مع التحليل المكاني التقليدي للشبكات في الجغرافيا وتحليل الشبكات الاجتماعية . بشكل عام ، يُقدم ANT رؤيةً أكثر شمولاً للشبكات والعلاقات مقارنةً بأيٍّ من هذين النهجين . فهو يُوفر إطارًا يأخذ في الحسبان تعدد الجهات الفاعلة ، ويسمح بمراعاة سيولة أنواع متعددة من العلاقات . كما يُقدم ANT رؤيةً مختلفةً تمامًا لمكانية علاقات الشبكة ، رؤيةً لا تقتصر على المنظور الإقليدي للمكان . ومع ذلك ، قد يُجادل البعض اليوم بأن ANT أقل دقةً تحليليًا في تحديد أهمية أنواع مختلفة من علاقات الشبكة في شبكةٍ ما ، ونتيجةً لذلك ، يتركنا ANT بمفهوم ضيقٍ عن المكانية . وهذا أحد القيود

التي يُستشهد بها كثيرًا لـ ANT كنهج ، وهو السبب الذي يدفع بعض الباحثين إلى القول بأنه يُمكن عد ANT أيضًا منظورًا غير سياسي . لذا ، ينتقل هذا الفصل الآن إلى مناقشة هذه القضايا.

ANT، المكانية، والاختلاف: قيود أم مزايا؟

في السنوات الأخيرة ، بدأ العديد من الجغرافيين بدعوتنا إلى النظر إلى مكانية العلاقات الاجتماعية على أنها ليست ثابتة أو جوهرية أو قابلة للاختزال إلى معطيات المسافة أو التسلسلات الهرمية للمقاييس . بدلاً من ذلك ، شجّعنا على رؤية المكان والروابط بين المجتمع والفضاء على أنها علاقات ، على أنها تُنتج وتُحدّد باستمرار (ماسي وآخرون، 1999) . وكما أوضح أمين (2002: 389) مؤخرًا ، فإن المكانية من منظور علاقتي تتشكل من خلال طيات وتداخلات الممارسات المختلفة . إن مفهوم المكانية الناشئ في الجغرافيا البشرية مستوحى إلى حد كبير من التفكير الشبكي ، ومشروع ANT مرتبط به ارتباطًا وثيقًا . إنه مفهوم مكاني مُضمّن في الأفكار العلائقية حول الفضاء والمكان كنتيجة لعمليات مترابطة وليس نتاجًا لهندسة ديكارتية ومعطيات متجانسة للمجتمع . إن حقيقة أن التفكير الحالي في الجغرافيا البشرية قد بدأ يحل محل المفاهيم الثابتة والجوهرية والهرمية للمكان والفضاء تتوافق مع مشروع ANT.

ربما يعود أصل النظرة إلى المكان على أنه مفتوح ومسامي ، وأنه نتاج لمكانية العلاقات الشبكية ، إلى مفهوم "هندسة القوة" الذي طرحته دورين ماسي (1991؛ 1993؛ 1999؛ 1999ب) . في السنوات الأخيرة ، طوّر باحثون آخرون الأفكار العلائقية للمكانية ، مما أدى إلى ظهور تصورات مكانية تُسلّط الضوء ، كما قال واتمور ، على "تزامن التكوينات المكانية-الزمانية المتعددة والجزئية للحياة الاجتماعية وموقع المؤسسات والعمليات والمعارف الاجتماعية" (1999: 31) . ويشمل هذا الآن التفسيرات الجغرافية للواقعية المكانية التي تُوجّه انتباهنا إلى التأثيرات الناتجة عن سيولة أو تحوّل التجمعات المكانية المختلفة للفاعلين (موردوك، 1997؛ 1998؛ شارب وآخرون، 2000).

جميع المناهج العلائقية للمكانية لها أيضًا آثار على تفسيرات علاقات القوة . فالقوة متشابكة في شبكات من العلاقات ولها تعبيرات مختلفة - قوة مهيمنة ، وقوة مقاومة (شارب وآخرون، 2000) - كما أنها مرتبطة بالمواقف التي يشغل الأفراد هذه الشبكات (شيبارد، ٢٠٠٢) . يشير هذا إلى أن الفهم العلائقي للسلطة لا يمكن فصله أيضًا عن الفهم العلائقي للمكان ، على سبيل المثال . إذا كانت الأماكن تُبنى من خلال آليات شبكات معقدة من العلاقات الاجتماعية ، فيجب النظر إليها أيضًا على أنها تُعزز تشابكات السلطة المعقدة (شارب وآخرون، ٢٠٠٠) . كنهج علائقي ، يُعدّ ANT مفيدًا جدًا هنا أيضًا . من منظور ANT ، يقودنا التفكير في السلطة والشبكات والمكان إلى النظر في الطرق التي يتمكن بها مختلف الفاعلين ، الذين يتمركزون بشكل مختلف في الشبكات ، من بناء علاقات وأشكال مختلفة من السلطة وتنفيذها ، والتأمل في كيفية ترسيخ هذه العلاقات وأشكال السلطة ماديًا وخطابيًا في الأماكن وتدفعها عبر الزمان والمكان .

يُعدّ ANT إطارًا مثاليًا للتعامل مع فضاءات السلطة ، لأنه يُوجّه انتباهنا بوضوح إلى الآثار الناتجة عن سيولة التكوينات المكانية لمجموعة متنوعة من الجهات الفاعلة . ومع ذلك ، قد يجادل البعض بأن ANT ، كمنظور تحليلي، لا يمكن توسيعه إلا إلى حد معين في معالجة جغرافيات السلطة والاختلاف . يُعدّ ANT إطارًا ممتازًا لوصف التركيب المعقدة والمتغيرة لشبكات الجهات الفاعلة غير المتجانسة . ولكن ماذا لو شملت اهتماماتنا البحثية أيضًا الرغبة في إدراك وتقييم كيفية ارتباط مجموعة من أنواع العلاقات في شبكة الجهات الفاعلة - التي تربط بين مختلف الجهات الفاعلة / الفاعلين - بنتائج وأحداث مختلفة ؟ جادل البعض بأنه عندما يتعلق الأمر بالاعتراف بأشخاص مختلفين وأصوات مختلفة والسياسات المرتبطة بها (أي "الآخر"

أو "الاختلاف" ، يمكن عد ANT إطارًا استعماريًا تقريبًا (لي وبراون، 1994) . إذا كان كل شيء مُضمّنًا ومتصلًا ومُنظّمًا من خلال شبكات الجهات الفاعلة ، فقد لا تترك ANT أي مساحة خارج الشبكة... ولا مجال للاختلاف... ولا شيء خارج العلاقة التي تُنظمها" (هيترينغتون ولو، 2000: 2).

بعبارة أخرى ، قد تكون ANT قيمة إطار عام يسمح لنا بالتفكير في تكوينات السلطة والتغلب على الثنائية بين الطبيعة والمجتمع من خلال اتباع تكوينات مختلفة للعلاقات وتأثيرات الشبكة . ومع ذلك ، من الناحية التحليلية ، يمكن لـ ANT أيضًا أن تُخفي الاختلاف (أي الأنواع المختلفة للعلاقات داخل وبين الجهات الفاعلة والعمليات المختلفة) ، وبالتالي يمكن عدّها منظورًا غير سياسي . ومع ذلك ، فإن هذا القيد ليس حكرًا على ANT ، بل يعتمد بالتأكيد على كيفية تناول المرء للمنظور من خلال البحث . على سبيل المثال ، لمهمة تتبع طوبولوجيات الحياة البرية ، كما فعل واتمور مع الأنواع الحيوانية المهددة بالانقراض حاليًا مثل الكيمان لاتيروستريس ، آثار سياسية وأخلاقية مهمة لأنها توضح الطرق التي تُصبح بها الحيوانات موضوعية تحت رعاية إدارة الحياة البرية .

ويطالب مشروع بحثي كهذا بإعادة النظر في سياسات التنوع البيولوجي وجهود الحفظ الحالية . ويمكن أيضًا اتخاذ وجهة نظر نقدية فيما يتعلق بمفهوم ANT للمكانية . فقد جادل بعض الباحثين بأن ANT لا يبدو أنها تُدرك صراحةً أن العلاقات المختلفة قد يكون لها تعبيرات مكانية مختلفة . ونتيجة لذلك ، في بعض الأبحاث الجغرافية المستوحاة من ANT ، طُمست الخطوط الفاصلة بين الشبكات والمكانية بشكل كبير . على سبيل المثال ، جادل بعض الجغرافيين بأن "أي تقييم للخصائص المكانية هو في الوقت نفسه تقييم لعلاقات الشبكة" (موردوك، 1997: 332) وقدموا وجهات نظر حول المكان والنطاق تبدو وكأنها تذوب في الشبكات . يمكن أن تؤدي هذه التحركات إلى مواصفات غامضة للمكانية ، وكان هذا أحد الانتقادات الرئيسية الموجهة إلى نظرية ANT.

وكما أوضح شيبارد (2002: 317) ، فإن الاهتمام بتمثيل الشبكات كمساحات غير هرمية حيث تتمتع جميع الجهات الفاعلة المعنية بسلطة كبيرة قد أدى إلى إهمال تمايزها الداخلي . فالعلاقات في الشبكة ليست كلها متماثلة ، وستؤدي اختلافاتها حتمًا إلى اختلافات مكانية (هينشليف، 2000). الجغرافيون مُحقّقون بالتأكيد في إشارتهم إلى ميل ANT لمحو الاختلاف داخل الشبكات . يجب أخذ هذه النقطة بالحسبان ، ولكن لا ينبغي المبالغة في التأكيد عليها ، ولا ينبغي لنا استبعاد ANT بسرعة . بل على العكس ، يمكن اكتساب رؤى قيمة حول تكوين العمليات والممارسات الجغرافية المختلفة من هذا المنظور؛ وتُعدّ مساهمة لورانس كنوب في هذا المجلد (الفصل 20) ، التي يستخدم فيها ANT للتفكير في انعدام المكان ، مثالًا ممتازًا . لذلك ، يجب علينا التعامل مع ANT من منظور نقدي والا فادة من رؤاه القيمة لتحديد الجغرافيات بشكل أكثر ثراءً - دون أن ننسى أن ANT يميل إلى استخدام مفردات تتجنب الاعتراف بالاختلاف.

الملخص والخاتمة

أدرج الجغرافيون ANT في أجنداتهم البحثية ، وجعلوها أحد أكثر مناهج التفكير العائقي تطورًا

المتاحة اليوم . برزت نظرية ANT كمنظور يسمح بتأطير الاهتمامات البحثية المتعلقة بالشبكات ، والعلاقات بين البشر وغير البشر ، والمكانية من خلال نظرية مرنة وقابلة للتغيير . يرى الكثيرون أن ANT نهج ما بعد بنوي لعلاقات القوة ، يمكن تكييفه وتحويله وتعديله ليناسب اهتماماتهم البحثية ، وفي الوقت نفسه نهج يمكن "تأسيسه" وجعله ذا صلة سياسية . إنه نهج يشجع على التفكير في سيولة ما هو اجتماعي ، وطبيعي ، والأهم

من ذلك ، في الفضاء والمكان والحجم . لقد خلقت مرونة ANT وقابليتها للتغيير من منظور ما بعض الارتباك . في هذه المرحلة ، تعني ANT أشياء مختلفة لأشخاص مختلفين ، وعلى الرغم من شعبية هذا النهج ، ما يزال الكثيرون غير واضحين بشأن ماهية ANT ، وما يمكن أن تفعله ، وما لا ينبغي أن يُطلب منها فعله . يعتقد الكثيرون أن ANT تدور حول الشبكات . ورغم صحة ذلك ، فقد أظهر هذا الفصل أنه من التبسيط والاختزال التحدث عن ANT من حيث الشبكات فقط دون تحديد المقصود بـ "الشبكات" بمصطلحات أكثر تحديداً . بل إن هناك جدلاً مستمراً بين بعض المؤيدين الرئيسيين لـ ANT بشأن وضع هذا النهج . وقد جادل برونو لاتور (1999) بأن ANT ليست نظرية مكتملة ؛ بل ادعى أن استخدام كلمات "فاعل" و"شبكة" و"نظرية" لتسمية النهج في اللغة الإنجليزية قد ساهم في الارتباك حول ماهية مشروع ANT حقاً . يُعرب العديد من الباحثين الآخرين بصراحة عن محدودية نظرية ANT مقارنةً بالمناهج التقليدية الأخرى في النظرية الاجتماعية ، وينتقدونها لكونها غير سياسية ولتقديمها رؤية للعالم تتجاهل العواقب المادية الحقيقية لأفعال الفاعلين والمؤسسات التي يُزعم أنها تعمل فعلياً "خارجاً" في العالم .

ومع ذلك ، يمكن أن يكون لمشروع ANT آثارا تقدمية سياسياً ، كما هو موضح أعلاه في مناقشة طوبولوجيات واتمور (2002) للحياة البرية . في النهاية ، لا يسع العديد من أولئك الذين يُعربون بصراحة عن بعض مشاكل ANT إلا الاعتراف بفائدة هذا المنظور والانجذاب إلى بعض افتراضاته الرئيسية . وهكذا ، يواصل العديد من الجغرافيين إعادة صياغة وتفسير ANT من خلال تطبيقه على سياقات ومواقف جديدة في أماكن مختلفة - وهو في النهاية أمر جغرافي بحت . بشكل عام ، يُتوقع أن يصبح ANT نهجاً أكثر قيمة في الجغرافيا البشرية مع تزايد عدد الباحثين الذين بدأوا بتبني هذا المنظور وتحسينه من خلال مشاريع بحثية مختلفة .

يُعدّ ANT أسلوباً متطوراً للتعامل مع الشبكات والعلاقات بين الجهات الفاعلة والأشياء والعمليات التي يهتم بها الجغرافيون عادةً في أبحاثهم ، من الجغرافيا الاقتصادية إلى الجغرافيا الحضرية والسياسية والثقافية . هناك مجال واسع لمزيد من التنظير والتركيب باستخدام ANT كنقطة انطلاق ، وهنا تكمن قوة ANT وجاذبيتها للجغرافيين اليوم . **يجب علينا إشراك ANT من خلال البحث ، وأن نبدأ بتحدى تتبع شبكات الجهات الفاعلة ، وكشف العلاقات المعقدة.**

ملاحظات

- 1) على سبيل المثال، تضمن المؤتمر السنوي لجمعية الجغرافيين الأمريكيين لعام 2003 في نيو أورلينز 53 ورقة بحثية كانت كلمة "الشبكة" إحدى الكلمات المفتاحية المدرجة في الملخص . من بين هذه الأوراق ، تناول أكثر من نصفها نظرية الشبكة الفاعلة مباشرة أو استوحى منها (تناولت الأوراق العشرون الأخرى تقريباً الشبكات بطرق أخرى وشملت الجغرافيا البشرية والطبيعية) . وظهر عدد مماثل من الأوراق البحثية التي تتناول نظرية الشبكة الفاعلة في الاجتماع السنوي للجمعية المهنية نفسها في لوس أنجلوس قبل عام.
- 2) تشمل الأمثلة هنا أعمال الجغرافيين الاقتصاديين مثل أمين وثريفت (1994) وستوربر (1997)، الذين يركزون على الاندماج الإقليمي للشركات والأسواق في شبكات العلاقات الاجتماعية والثقافية من خلال التركيز على المحليات أو المناطق .

3) حتى برونو لاتور قد أدرك أن ANT "أداة سيئة للتمييز بين الارتباطات [لأنها] تعطي صورة بالأبيض والأسود ، وليست ملونة ومتناقضة ... [وبالتالي] من الضروري ، بعد تتبع شبكات الجهات الفاعلة ، تحديد أنواع المسارات التي يتم الحصول عليها من خلال وساطات مختلفة للغاية" (1996: 380).

الملحق 11.1

شبكات الجهات الفاعلة: تتبع "طوبولوجيات الحياة البرية"

ماذا يحدث إذا بدأنا بتحليل "الطبيعة" وما نعهه غالبًا "حياة برية" من منظور ANT ؟ وفقًا للجغرافية سارة واتمور ، فإن الإجابة هي أنه بدلًا من رؤية الطبيعة من منظور صور بدائية وريفية وطوباوية للحيوانات والنباتات في البرية ، يبدأ المرء برؤية البرية والحياة البرية على أنها "إنجازٌ علائقيٌّ منسوجٌ بين الناس والحيوانات ، والنباتات والتربة ، والوثائق والأجهزة في شبكات اجتماعية غير متجانسة تُنفَّذ في أماكن متعددة وبيئات متغيرة ومن خلالها" (٢٠٠٢: ١٤). تبني واتمور هذه النظرة العلائقية للطبيعة من خلال تتبع "طوبولوجيات" مختلفة للحياة البرية : شبكات الألعاب الرومانية القديمة (التي تتضمن حيوانات مختارة للتنافس في ألعاب عامة دموية ضد حيوانات أخرى وبشر) ، وقوائم جرد الأنواع المعاصرة التي بُنيت حول علم التنوع البيولوجي (حيث ، بدافع من جهود الحفظ ، تُحمى حيوانات معينة ويُدار تكاثرها واستخدامها من قبل البشر علميًا).

تشغل كل من هاتين الشبكتين من شبكات الحياة البرية زمانها ومكانها الخاصين ، لكن عملية البناء وراء كل منهما - تجميع عناصر متنوعة من خلال الشبكات - متشابهة . على سبيل المثال ، كان النمر الذي كان يحتل مركز الصدارة في ساحة رومانية خلال ألعاب المصارعة مجرد جزء واحد من مجموعة معقدة من شبكات التوريد التي تتضمن خطوط إمداد عسكرية ورعاية سياسية ربطت روما بالصين والهند وأفريقيا . وكما يوضح واتمور ، فإن النمر الذي رآه المتفرجون في ساحة رومانية كان تجسيدًا لنمر في مكان ما في أفريقيا . غالبًا ما كانت الفهود التي نجحت في المشاركة في معارك المصارعة والحيوانات البرية تُعاني من الجوع وسوء المعاملة و/أو المرض .

وقد تغيرت خصائصها من خلال تنقلها في شبكات شملت صيدها وأسرها ، ونقلها في صناديق خشبية عبر البر وفوق الماء (في عربات وسفن تجارية رومانية) ، وتدريبها ، وتخزينها في أوكار تحت الأرض حيث تنتظر يوم أداؤها الأخير . ومن خلال تنقلها عبر شبكات معقدة من العناصر غير المتجانسة ، أصبح النمر ما أطلق عليه الرومان اسم "ليوباردوس" - وهو عرض للحياة البرية . وبالمثل ، تُعد الحيوانات البرية اليوم جزءًا من شبكات معقدة وغير متجانسة ، ليس فقط بكونها "جوهرًا بيولوجيًا موحدًا ، بل بكونها ملتقى قوى غريزية وسياقية" (2002: 14).

حاليًا ، يتم تصنيف العديد من الحيوانات البرية علميًا وفقًا لمبادئ التنوع البيولوجي في نظام تصنيفي نشأ عن ، ويشبه إلى حد كبير ، الدافع الاستعماري لإخضاع العالم لتفسير علمي منهجي . على سبيل المثال ، من خلال المؤسسات المحلية والوطنية والعالمية التي تنظم التجارة الدولية في الحياة البرية ، مثل اتفاقية التجارة الدولية في الأنواع المهددة بالانقراض ، تم تصنيف نوع معين من تمساح أمريكا الجنوبية عريض الأنف (المعروف لدى السكان المحليين باسم ياكاري) على أنه كايمان لاتيروستريس ، وكنوع مهدد بالانقراض . وقد أدى تسمية وتصنيف تمساح أمريكا الجنوبية إلى إدراجها فعليًا في الشبكات العلمية للتنوع البيولوجي التي تعزز مناهج الحفظ المُدارة .

تشمل هذه المناهج "البيع المُنظم لأجزاء جسم التمساح [ل] توفير حوافز للسكان المحليين لضمان بقاء هذا النوع" (2002: 27). هذا الاستخدام "المستدام" للتمساح يضعه في شبكة معقدة تشمل جمع البيض ، وتكاثره في محطات خاصة تُوسم فيها الحيوانات ويحدث فيها الفقس ، وعودة بعض التماسيح الصغيرة إلى موطنها ، وتربية وتسمين بعضها الآخر لأغراض تجارية . وتستمر عملية تحول التمساح إلى نوع من أنواع الكيمان لاتيروسستريس (حيوان بري ؟ جلد غريب ؟) مع توسع الشبكة لتشمل الذبح والدباغة . وأخيراً ، تُعتمد الجلود وتُدخل السوق الدولية لجلود الزواحف . ومن خلال انضمامه إلى الشبكات العلمية المعنية بالتنوع البيولوجي وحفظ وإدارة الحياة البرية ، يُصبح التمساح عريض الأنف ، وبشكل متناقض ، نوعاً مهدداً بالانقراض من نوع الكيمان لاتيروسستريس ، وفي الوقت نفسه ، أحد أكثر جلود التماسيح تداولاً في جميع أنحاء العالم . تشير أمثلة النمر والتمساح معاً إلى أن لعب دور حيوان بري والتحول إليه هما نتيجة التحاق العديد من الجهات الفاعلة البشرية وغير البشرية بشبكات فاعلة تمتد من المحلي إلى العالمي.